

الطلاسم وأثرها على الفلاحة بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط  
**The Talasim And its Effecton Agriculture in The Meddle Meghreb Central During  
 The Inter Mediate Age.**

داودي الأعرج \* **daoudi laredj**

daouidi.r@gmail.com

المركز الجامعي نور البشير بالبيضا

تاريخ النشر: 2021/01/16

تاريخ القبول: 2020/03/08

تاريخ الاستلام: 2018/06/05

ملخص:

يتناول البحث في هذا الموضوع مسألة هامة تتعلق بالفلاحة، ونحاول وضع تصور شامل وتبسيط الضوء على حقيقة الطلاسم التي تتأرجح بين العلم وبين الشعوذة والخرافات وعلاقتها بممارسات الفلاحين وخدمة الفلاحة، في ظل عجز علم الفلاحة وخبرة الفلاحين المتراكمة عبر الأجيال، وفشل السياسة الزراعية للدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط في وضع حد لمخاطر الجوائح والأفات والأمراض التي شكلت خطرا على مصير الفلاحة في المغرب الأوسط، ومن هذا المنطلق يعالج الباحث في هذه الدراسة واقع الفلاحة في ظل لجوء الفلاحين إلى الطلاسم في غياب الحلول الناجحة للتصدي للأخطار المحدقة بالفلاحة.  
 كلمات مفتاحية: الطلاسم؛ الفلاحة؛ الزراعة؛ الدين؛ السحر؛ الدولة.

**Abstract:**

Research in This topic is an important issue related to farming, and we try to provide a comprehensive picture of Agriculture, The longer the paint is a phenomenon spread in society the argument had an effect on the peasants. Given the inability of the science of Agriculture for a solution to all the problems of Agriculture. The adoption by farmers of its effectiveness in eliminating pests: Based on that it was our interest to study the effect of paint on the cultivator.

**Keywords:** Cultivator : Paint : Religion : Sorcery : Grazing.

## Résumé :

La recherche porte sur ce sujet est une question importante liée à l'agriculture, et tente de développer une perception globale et mettre en évidence les faits hiéroglyphes qui oscille entre la science et entre la sorcellerie et superstitions et leur relation avec les pratiques des agriculteurs et le service de l'agriculture, sous le drapeau de l'Agriculture et de l'expérience accumulée paysans déficit par les générations, et l'échec de la politique agricole pour les pays qui sont venus à Megreb centre condamné l'Est à mettre un terme au risque de pandémies, les ravageurs et les maladies qui présentent un risque pour le sort de l'agriculture au Megreb centre .

**Mots clés :** Maghreb central؛ Magique؛ Talasim؛ Religion؛ Agriculture؛ Pastorale.

مقدمة :

تعد الفلاحة أحد أهم أركان الاقتصاد في العصر الوسيط، ولهذا كان اهتمام الدولة والفلاح على حد سواء ينصب على تطويرها، وقد برز في هذه الفترة مجموعة من العلماء صنفوا كتباً في علم الفلاحة، وسعى الجميع لتطوير الطرق والأساليب وتشخيص الأخطار المحدقة بها، ويندرج هذا في سياق البحث عن الحلول وطرق العلاج بما يخدم الفلاحة، وفي خضم ذلك برزت الطلاسمة التي اعتبرت علم حقق في مجال الفلاحة ما لم تحققه بعض العلوم الأخرى، وقد عمل بها علماء الفلاحة وعوام الفلاحين على حد سواء. ونسعى من خلال هذا البحث إلى فهم حقيقة الطلاسمة كونه عند البعض علم قائم بذاته وعند البعض الآخر مجرد شعوذة وخرافات. وفي سياق سعينا لتحديد حجم الإقبال على توظيفه في الممارسة الفلاحية في ظل قلة المصادر المهتمة بمثل هذه المسائل، يصعب علينا وضع تصور شامل للتلسم وعلاقته بالفلاحة، وما يرتبط بذهنية وممارسة علماء الفلاحة وعوام الفلاحين، لما له أهمية بوضع الفلاحة في المغرب الأوسط خلال هذه الفترة.

وقد أفادت بعض المصادر وفي مقدمتها كتب السحر والطلاسمة، وبعض المصنفات في علم الفلاحة، وكذلك توفر بعض الإشارات في كتب الجغرافية بمعلومات هامة تفيد باستخدام الطلاسمة في مجال الفلاحة، وبناء على ذلك توفرت بين أيدينا جملة من المعلومات الهامة التي ساهمت في توضيح ملامح هذه الظاهرة في تاريخ الفلاحة بالمغرب الأوسط. ولفهم الإشكالية المطروحة لا بد من إيجاد إجابة للأسئلة التي يثيرها الموضوع، وتمثل فيما يلي: ما هي حقيقة الطلاسمة؟ وهل تعد علما قائما بذاته نافعا للفلاحة أم تندرج ضمن الشعوذة والخرافة؟ وما مدى تأثيرها على ذهنية وسلوك الفلاحين بالمغرب الأوسط؟ وفيما يتجلى أثرها على الفلاحة في ظل السعي الحثيث للفلاحين لإيجاد حلول لمشكلة الآفات والمخاطر التي سببت أضرارا بالغة للفلاحة؟ وما موقف علماء الفلاحة من استخدام الطلاسمة؟

وفي سياق دراسة هذا الموضوع المتعلق بعلاقة الطلاسم بعلم الفلاحة في المغرب الأوسط، كان لابد من جمع وقراءة مختلف المصادر والدراسات التي لها علاقة بالموضوع، والتي خلقت تصورا لدى الباحث، ساهم ذلك في وضع مسارات لهذه الدراسة، وبناء على ذلك وضعنا عدة عناصر ساعدت في الإحاطة بالموضوع..

## 1\_ الطلاسم والعلم:

اعتبر العديد من أهل العلم أن الطلاسم تعد علما قائما بذاته، حيث رأى ابن صاعد الأندلسي (462 هـ / 1080 م)، أن الطلاسم من أهم العلوم التي اقتصها العلماء بالدراسة منذ القدم (ابن صاعد الأندلسي، 1998، ص 54)؛ وهذا يتفق مع الكثير من العلماء حيث يعتبرها جابر بن حيان (ت 200 هـ / 815 م)، من أجمل العلوم التي يحقق فيها الإنسان ما لم يستطع تحقيقه باعتماد بعض العلوم الأخرى، ويتحقق فعل الطلاسم بأحد الشرطين، هما: المقابلة أو المماثلة، حيث يستطيع العالم بالطلاسم عن طريق المماثلة من استجلاب أشياء كثيرة يرغب في حضورها صاحب الطلاسم كجلب الأفاعي والحيات والعقارب، وغيرها من أنواع الوحوش والهوام، وهذا بفعل المماثلة بين الكواكب والبروج وبين صفة الشيء الذي يريد استجلابه صاحب الطلاسم، وفي المقابل يتم طرد أو إبقاء الأشياء كالحيات والعقارب والهوام والنمل والفئران وغير ذلك، وهذا بفعل التباين بين صفة هذه الأشياء أو المخلوقات وبين الكواكب والبروج حسب رغبة صاحب الطلاسم (زكي نجيب محفوظ، 2001، ص 260، 262).

يبدو أن جابر بن حيان قد اهتم بدراسة الطلاسم من باب اعتباره أفضل العلوم، التي خفيت أسرارها عن الناس إلا الخاصة ممن تمكنوا من كشف أسرارها، والتحكم في منافعها ومضارها، وقد أبدى إعجابه بالطلاسم وحذر من مخاطرها، حيث قال: "... أعني علم الطلاسمات، والعلم العظيم الكبير، الذي ليس في العلوم كلها مثله ولا أعز منه ولا هو مفهوم ولا معقول ولا ألف فيه شيء من الكتب، علم استخدام الكواكب العلوية وما فيه وكيف هو ... فاضبط نفسك وعقلك فيما أنا ذاكره، وإلا هلكت وضعت ولم تحصل شيئا من أمرك ...". (جابر بن حيان، 2002، ص 47، 48)

وكانت تستخدم أصنافا مختلفة من البخور المستخلصة من المنتجات الزراعية، بما يلائم وصفة الشيء المطلوب وما يقابله من كوكب و برج حسب الطريقة المعتمدة المتمثلة في المماثلة والمقابلة، فمثلا كان يستخدم فيما يتعلق بكوكب زحل بخور المماثلة في اليبوسة والبرودة كالبرقطنونيا، والكافور، والكركم، وبعر الضب؛ أما بخور المقابلة الحارة واليابسة، كان يستخدم حب البلسان، والبلسان، والمسك، وفيما يخص كوكب المشتري فالبخور المستعملة في المماثلة الحارة والرطوبة تتمثل في الأنيسون، والزعفران، والجرجير، وزبد الفلفل، والعنبر (جابر بن حيان، 2002، ص 88).

كان جابر بن حيان أكثر وضوحا فيما يتعلق باستخدام الطلاسم، حين قال: "وإذ قد بان الوجه في المقابلة والمماثلة، فإناراجعون إلى ذكر الطلسمات وقد قلنا فيها إنها إما استجلاب واستكثار كاستجلاب العقارب والحيات والضفادع والسمك والناس والوحوش، وإما نفي وإبعاد مثل طرد هذه عن المدن والأماكن، وهذه الطلسمات تتبع شيئين، وهما: طباع الأدوية والعقاقير، وطباع حركات النجوم وطباع مواضعها لا غير...". (جابر بن حيان، 2002، ص 78، 79)

وقد اعتبرت الطلاسم من أفضل أنواع السحر، نظرا لفعاليتها تأثيرها وقدرتها على تغيير الأحوال، وكانت تقوم على ربط الجانب الروحي بالجانب المادي، وقد استعان علماء الطلاسم بعلوم أخرى كالفلك والكيمياء، ولهذا قال عنه مسلمة المجريطي (ت 398 هـ / 1007 م): "... وهو علم غامض الإدراك ومنه أيضا عملي لأن موضوعه روح في روح، وهذا هو النيرنج والتخيل، كما أن موضوع الطلسم روح في جسد وموضوع الكيمياء أيضا جسد في جسد، فبالجملة السحر هو ما خفي عن عقول سببه، وصعب استنباطه وحقيقة الطلسم أنه معكوس اسمه وهو المسلط لأنه من جو مسموعه القهر والتسليط...". (أبو القاسم المجريطي، د ت، ص 5). وفي موضع آخر، قال: "... واعلم يا أخي أن من السحر ما هو مستفاد، ومنه ما هو حيلي ضمن المستفاد ما كان يصنعه حكيم الدورة القمرية ونحو هذا ... إن السحر مفيد في قسمين علمي وعملي، فالعلم هو معرفة مواضع الكواكب الثابتة وإذ موضوعها يجعل الصور وكيفية إلقاء أشعتها ... عند طلبه كون المراد وتحت هذا جميع ما وضعت الأوائل من الاختبارات والطلسمات ذا علم أنه من اختيار فقه طلسم هذا أمر ضروري، وأحسن أنواع السحر العلمي هو الكلام ونحو هذا...". (أبو القاسم المجريطي، د ت، ص 6).

كان أبو القاسم أحمد السبتي من أشهر علماء بلاد المغرب الذين ساهموا في نشأة هذا العلم ببلاد المغرب أواخر القرن السادس الهجري، بوضعه قوانين الطلسم، وتبحر في دراستها حتى نسبت إليه، فكان من صنعه وضع دائرة كبيرة تضم دوائر متوازنة للأفلاك والمكونات والروحانيات والعناصر، بما يحقق استخراج الغيب وتلبية الرغبات (صديق حسن خان، 1978، ص 311)، ومنها ما يتعلق بالفلاحة كتحسين الإنتاج وجودته، وجلب المطر، وإبعاد الآفات والجوائح، وكذلك ما يتسبب في إلحاق الضرر بها، وبناء على ذلك فإن استخدام الطلسم في علاج الفلاحة كان شائعا خلال هذه الفترة. ومن هذا المنطلق قال ابن خلدون (ت 808 هـ / 1405 م): "هذه الصناعة من فروع الطبيعيات، وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوؤه بالسقي والعلاج واستجادة المنبت وصلاحية الفصل وتعاوده بما يصلحه وينمه من ذلك كله، وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة، وكان النظر فيها عندهم علما في النبات من جهة غرسه وتنميته، ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهيكل المستعمل ذلك كله في باب السحر، فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك...". (ابن خلدون عبد الرحمن، م 1، 2003، ص 548). وذكر حاجي خليفة مجموعة من الكتب التي صفت في علم الطلاسم، فذكر منها:

كتاب سر الأسرار في بصائر الأبصار في الطلسمات، وكتاب سر الجمال ولطائف الجلال في الطلسمات، وكتاب السر الرباني في العالم الجسماني في الطلسمات (حاجي خليفة، 2008، ص 278، 279).

خلاصة القول، اعتبر الطلسم عند الكثير علم قائم بذاته، وصفوه ضمن أشهر العلوم التي ظهرت فضائلها على كافة المجالات الحياتية وفي مقدمتها الزراعة والرعي، وما يرتبط بهما من مؤثرات مناخية ومقدرات طبيعية وبشرية، وفعالية ذلك في تجنب كافة المخاطر والآفات التي تلحق أضراراً بالغة بالفلاحة، والتطلع لتحسين نوعية الإنتاج الزراعي والحيواني وجودته.

## 2\_ الطلسم في نظر علماء الفلاحة:

ما يثير اهتمام الباحثين علاقة الطلسم بالفلاحة من باب العلم والشعوذة، حيث يعتقد الباحث للوهلة الأولى أن هذه الممارسات تندرج ضمن البدع والخرافات، وتدخل في سياق السحر والشعوذة، حيث لا وجود لتطابق بين الفلاحة كعلم يقوم على تجارب ميدانية، وخبرة متراكمة بين أجيال متعاقبة، تتوقف على أنواع النباتات وخصائصها وما يوافقها من بيئة طبيعية كالمناخ، والتربة، وما تحتاجه من معرفة طرق وأساليب خدمة الأرض والعناية بها، وعلاجها من الآفات، وكذلك فيما يتعلق بجني المحصول وحفظ وتخزين المنتجات. وهذا يدفعنا للتساؤل: ما موقف علماء الفلاحة من توظيف الطلسم في الممارسات الفلاحية ؟

تجدر الإشارة إلى أن معظم كتب الفلاحة تضمنت معارف فلاحية هامة، يمكن تصنيفها إلى صنفين. الأول قائم على التجربة والملاحظة ومعارف عوام الفلاحين؛ فيظهر للقارئ والمهتم بالفلاحة أنه علم مستقل قائم على منهج علمي بحث. أما الثاني قائم على ما يتعارف عليه بعلم الطلسم، وما يعمل فيه لتحقيق ما لم يستطع الفلاح تحقيقه بالاعتماد على الصنف الأول، حيث يستخدم لحفظ المحصول من المخاطر والآفات قبل الإنتاج وبعد تحصيله وتخزينه من خلال جلب ما يفيد الفلاحة، وإبعاد ما يضرها، فمثلاً كتاب الفلاحة النبطية لمؤلفه ابن الوحشية (ت 296 هـ/ 908 م)، تضمن العديد من المسائل التي ذكر فيها استخدام الطلسم وأنواع السحر في ممارسة الفلاحة، وعلاجها ودفع الآفات عنها، حتى أن مسلمة المجريطي نقل عنه الكثير من هذا الكتاب فيما يتعلق بهذه المسائل (ابن خلدون عبد الرحمن، 2003، ص 549).

وقد أفاد قسطوس بطرق متعددة في استخدامها بما يصلح الفلاحة ويدفع الضرر عنها، فمثلاً ذكر إحدى الطلاسم لطرده البراغيث وتجنب أخطارها بكتابة الجملة الآتية "بِه من ماه-همن يود" أو قوله "أهينا، أهينا، هيا، هيا". وفيما يتعلق بحماية الشجر من الدود، ذكر عمل إحدى الطلاسم في كاغد وتعلق على الشجر، فيسلم من الدود ويقيه من الآفات (قسطوس، 2010، ص 258، 259). وهذا يدفع إلى الحيرة والتساؤل. كيف آمن علماء الفلاحة بهذه الطلاسم واعتقدوا فيها النفع وتأمين الزراعة والماشية من الأضرار الناجمة عن الأمراض والآفات التي تصيبها، وقد وقعوا في تناقض بين العلم

العملي القائم على التجربة والملاحظة، وبين ممارسات روحانية لا يتقبلها العقل العلمي، فعلى سبيل المثال كان يحمل طلسمًا للوقاية من خطر الخنازير ودفع ضررها (قسطوس، 2010، ص 281).

وفي هذا السياق نجد الطغزري (ت كان حيا سنة 480 هـ/ 1087 م)، الذي يعد من أشهر علماء الفلاحة، الذين اشتهروا بوضع قوانين وطرق وأساليب في مجال الزراعة وتربية الحيوانات، وحفظ الإنتاج الفلاحي على أسس علمية نافعة مستمدة من العمل الميداني والخبرة المتراكمة عبر الأجيال، يوصي باستخدام فخار غير مطبوخ مكتوب عليه سورة الذاريات ووضعه في مخازن ومطامر الحبوب لدفع الأذى عنها، وحفظها من التسوس والتلف (الطغزري، 2006، ص 49)؛ وهذا ما لا يتوافق مع الواقع العلمي الذي يقوم على دراسة الظروف والعوامل التي تسببت في وقوع الضرر لإيجاد طرق علمية عملية قائمة على التجربة يقبلها العقل والعلم، لدفع الضرر وطرده الآفات، وقد خصص الشيخ عبد الغني النابلسي (ت 1143 هـ/ 1730 م)، أحد أهم علماء الفلاحة المتأخرين الباب العاشر من كتابه للطلاسم وما يعمل فيها لجلب المنفعة، فمثلا ذكر طلسم لمعالجة الشجر من الآفات وحفظه من الجوائح، ودفع الخطر عنه، وزيادة الثمار وتحسين جودتها (عبد الغني النابلسي، د ت، ص 120).

وحسب عبد الغني، فإنه يمكن التخلص من الأعشاب الضارة، وحفظ الكروم، وطرده الجراد، والحيات، والهوام، والفئران، والطيور، والحشرات، والوحوش، والخنازير، ودفع الجوائح، وجلب المطر، باستخدام طلاسّم تعمل لأجل ذلك، ويرى أن هذه الطلاسّم نافعة (عبد الغني النابلسي، د ت، ص 121\_123). فهذا يجعل المتتبع لكتب الفلاحة يحكم على أن بعض العلماء المتخصصين قد جمعوا بين العلم والشعوذة، حيث يظن الكثير من المهتمين بالفلاحة أنها من معتقدات عوام الفلاحين، إلا أنه في الواقع قد اعتمدها بعض علماء الفلاحة، وأوصوا الفلاحين باستخدامها، ولم يقتصر الأمر على الطلاسّم بل هناك ممارسات تثير الاهتمام، وتنم على المستوى العقلي للفلاح في هذه الفترة، حيث أشار ابن العوام الأشبيلي (ت حوالي سنة 553 هـ/ 1158 م)، إلى طرق غريبة لا يقبلها العلم، وهي أقرب للخرافة، تستعمل لنضج الزيتون وحفظه من الآفات وزيادة المنتوج، حيث ذكر أنه إذا ملأ رجل أسود يده اليمنى بالزيتون النضج، واستخدم يده اليسرى وحفر في أصل شجرة الزيتون يوم السبت، ودفن فيها حبات الزيتون النضج الذي حمله بيده اليمنى، وأقام على سقمها في أيام معلومة، كثر حملها من الزيتون وسلم من الآفات (ابن العوام الإشبيلي، 1802، ص 559).

وكان قد أوصى بجمع صوف أحمر مع ريش طائر في خرق وتعليقه في شجر الجوز، فيمنع الثمار من السقوط ويزيد حجمها (ابن العوام الإشبيلي، 1802، ص 558)، وما يثير الدهشة أن الطغزري قد ربط حدوث الرعد في أول شهر فيفري بوقوع الفتن وكثرة القتل وارتفاع الأسعار، والعكس إن حدث الرعد في أواخر هذا الشهر يكثر الموت في المشية، وتقع الزلازل وتزدهر الفلاحة، أما شهر ماي

إذا حدث فيه الرعد قلت الأقوات، وإن حدثت زلازل مات العظماء، وإن استوى فيه الهلال كثرت الزرع والضرع، وأما إذا كان فيه الهلال مائلا شهدت تلك السنة كثرة الموت (الطغزني، 2006، ص 50، 51).  
خلاصة القول، قد استوى العلماء والعوام في الأخذ بهذه الطلاسم، والعمل بها في دفع الضرر وتحسين الإنتاج، فكان في نظر علماء الفلاحة أن الطلاسم علم نافع يمكن تحقيق به ما لم يستطع باقي العلوم تحقيقه في تطور الفلاحة، وهذا ينم عن الاعتقاد السائد في هذه الفترة، التي امتزج فيها العلم بالشعوذة .

### 3\_ استغلال الطلاسم في الفلاحة بالمغرب الأوسط:

ذكرنا تناول علماء الفلاحة للطلاسم والعمل به، وتأكيدهم على منافعه، وكان الفلاح بالمغرب الأوسط يلجأ في بعض الأحيان حين يستنزف كافة الطرق العلمية العملية في أعمال الفلاحة إلى اعتماد الطلاسم لزيادة الإنتاج الزراعي والحيواني، وحفظه من كافة الأخطار، فمثلا استخدمت طلاسم لحفر الآبار والأنهر، والإكثار من الزرع والضرع، وطرد الفئران ومنع الآفات (أبو القاسم المجريطي، د ت، ص 10 - 13). وأفاد البكري أن مدينة تهوذة كانت تعرف بمدينة السحر لكثرة استخدام الطلاسم (البكري، 2003، ص 255).

ويبدو أنهم كانوا يلجؤون في هذه الفترة إلى حفر الآبار اعتقادا منهم بفعاليتها في منع حدوث الزلازل (جابر ابن حيان، 2002، ص 25). وقد استخدمت الطلاسم والملح الدراني لمنع الأفاعي وطردها، وكان يستخدم طلسم به جرادة مصنوعة من معدن الذهب لطرد الجراد والوقاية منه (ابن الدلائي أحمد، د ت، ص 2، 23)؛ وقد ذكر كليفوردي بوزورث وحسن نافعة أن اللجوء إلى الطلاسم لأغراض شتى كان واقعا آنذاك حسب مصالح الفلاح كطلب توليد الحيوانات، وما يتعلق بالنحل والأفاعي وغيرها (حسن نافعة وكليفوردي بوزورث، 1987، ص 139)، وقد عرفت العديد من أمصار المغرب الأوسط باستخدام الطلاسم، فقد أفاد صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار بكثرة الطلاسم في مدينة تبسة، وأشاد بكثرة اقتناء أهلها للطلاسم، حيث كانوا يعتقدون أنها تقيهم من خطر لسعة العقارب (مؤلف مجهول، د ت، ص 162).

وكان العامة قد ربطوا الفلاحة بما يتكهن به المنجمون من نزول للمطر، وخصب الأرض، وكثرة الخيرات أو الاحتياط من وقوع سنة قحط وجفاف وفساد الزرع ووقوع الجوائح والآفات، وغير ذلك، وقد أسعفنا القاضي النعمان بصورة واضحة عن ذهنية وسلوك الفلاحين، والتي تعبر عن المستوى العقلي للفلاح في المغرب الأوسط، حيث في كثير من الأحيان تغلب التنجيم والطلاسم على علم الفلاحة، بسبب الاعتقاد السائد آنذاك والإقبال على من لديهم معرفة بالطلاسم والتنجيم، وفي ذلك قال القاضي النعمان: "وأقحط المطر أوان الحرث ووقعت الحاجة إليه، وكان المنجمون قد ذكروا أنها تكون سنة جذب وقحط، فما كانوا بأوشك من أن أتى الله (عج) من الغيث والسقيا والمطر ..."

(القاضي النعمان، ج26، 1996، ص 532). وهذا يرجح حقيقة أن عوام الفلاحين كانوا يعتقدون في الطلسم والتنجيم القدرة على معرفة أحوال الغيب للاستفادة منها بما يخدم الفلاحة، ويتجنبون الآفات والأمراض والجوائح .

تجدر الإشارة إلى استخدام العديد من الطلاسم في أعمال الفلاحة بالمغرب الأوسط، منها ما استعمل لكشف مواضع الماء، وتحديد مدى قربه أو بعده من سطح الأرض لحفر الآبار وجر القنوات لسقي المزارع والبساتين، كما اعتمدت للإكثار من إنتاج الفواكه (ابن الحاج التلمساني، ج1، د ت، ص 21، 53) ، وحماية الماشية والدواب من الأمراض، وزيادة اللحوم واللبن والسمن، كما كانت تستخدم لإلحاق الضرر كوقوع الموت بالماشية والحيوانات وانقطاع الإنتاج، وقد أعدت بعض الطلاسم لتأمين المزارع والبساتين وزرايب الماشية والدواب من الذئب والوحوش والهوام، وحماية الثمار والحبوب من الدود والتسوس (ابن الحاج التلمساني، ج2، د ت، 83، 85، 102، 112، 113، 148، 161)؛ وقد ذكر ابن الحاج التلمساني ( ت 737 هـ / 1336 م )، تحضير طلسم ووضعه في ساقية البستان لتحصيل نمو الشجر ومضاعفة الثمار (ابن الحاج التلمساني، ج1، د ت، ص 26). ويبدو أن الفلاحة انتقلت من المعرفة العلمية إلى ممارسة معتقدات مشبعة بالشعوذة والخرافات (أحمد الطاهري، 1997، ص 102).

الأمر الذي يثير الحيرة والاستغراب، ويدفع الباحث إلى التساؤل عن حقيقة احتضان المجتمعات الإسلامية المعارف والممارسات المتعلقة بالطلسم؛ ونعتقد جزما أن هذا الصنف من العلوم تفتش في مجتمعات العصر الوسيط؛ كما نعتبر أن المغرب الأوسط نال حظا وفيرا من استقطاب هذا النوع من المعتقدات خاصة في مجال الزراعة والرعي؛ وفي هذا السياق بعد كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية أحد أهم المؤلفات العابرة للمجتمعات الزراعية، الذي نال شهرة واسعة في أوساط الفئات المثقفة والعامية على حد سواء بالمغرب الأوسط؛ وقد أشار ابن خلدون إلى هذا الكتاب وما تضمنه من معارف فلاحية ترتبط بالطلسم، مثله مثل باقي العلماء الذين نقلوا عنه، وألفوا في هذا العلم كأبي القاسم مسلمة المجريطي (ابن خلدون، م1، 2003، ص 551؛ ابن صاعد الأندلسي، 1998، ص 90). وليس غريبا إذا اعتبرنا أن المغرب الأوسط كان سباقا إلى إنجاب علماء صوفيين نجباء، كانوا السباقين إلى المساهمة بإنتاج فكري وفير في مجال إعداد الطلسم وفك رموزه وتشخيص استخداماته المختلفة في تحصيل المنافع ودفع الضرر أو العكس. ومن هؤلاء الذين برعوا بعلم الطلسم، واستخدموه في الكثير من الميادين بما في ذلك الفلاحة بالمغرب الأوسط، نذكر العلامة الصوفي أحمد بن علي بن يوسف البوني ( كان حيا خلال القرن 6 هـ)، الذي لم تقتصر شهرته على المغرب الأوسط، بل سادت كافة أقاليم بلاد المغرب والأندلس؛ وهو صاحب العديد من المؤلفات، مثل كتاب " أسرار الحروف والكلمات وظهر الرموز وإبداء الكنوز"؛ وكتاب " شمس المعارف الكبرى". وقد نالت الفلاحة

حظها الوافر من عمل الطلسم وتحصيل منافعه في مضامين هذه المؤلفات، وحسب ما كان شائعا لدى عوام الفلاحين بالمغرب الأوسط؛ وقد شاعت أفكار البوني وانتقلت مؤلفاته إلى باقي أقطار بلاد المسلمين خاصة بلاد المغرب والأندلس، وكان له تأثير عميق على معارف العوام وعلماء الفلاحة في عصره (ابن خلدون، م1، 2003، ص 558؛ تريكي فتيحة، م8، ع2، 2018، ص 30).

لم تقتصر حركة التأليف، التي اختصت بدراسة فعل الطلسم وطريقة استخدامه على مؤلفات البوني، بل برز من بعده علماء برعوا في التأليف وكشف أسرار الطلسم، وتفسير طرق وأساليب استخدامه؛ ومن هؤلاء ابن الحاج التلمساني - المذكور سابقا - في كتابه "شمس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى"، الذي استند عليه فلاحو المغرب الأوسط في تحضير الطلسم واستعماله، اعتقادا منهم بقوة فعله في تحصيل المنافع ودفع الضرر (ابن الحاج التلمساني، دت، ص 21 - 161)؛ ونرجح من خلال إحدى الروايات إلى شيوع ظاهرة اختصاص بعض النساء خاصة العجائز في إعداد الطلاسم، الذي كان يعرف لدى سكان المغرب الأوسط وباقي المغاربة بالحرز أو التميمة، ومازال إلى يومنا هذا يسمى الحجاب؛ فكن يبعنه إلى عامة الناس بما في ذلك عوام الفلاحين؛ ونعتقد أن الفلاحين بالمغرب الأوسط لجأ بعضهم إلى أولئك النسوة من أجل الحصول على طلسمات رغبة منهم في تحصيل منتج زراعي وفير (تريكي فتيحة، م8، ع2، 2018، ص 31).

الباحث في هذا الموضوع يجد نفسه أمام إشكالية الخلط بين الدين والطلسم، التي سادت مجتمعات العصر الوسيط؛ وبناء على ذلك، يمكن القول باعتقاد فلاحي المغرب الأوسط بقدرة الطلسم على التغيير وإحداث فارق جوهري على وضع الفلاحة من حيث الإنتاج وكبح جميع الجوائح والأفات؛ وهذا ينم عن ذهنية وسلوك اجتماعي نابع من الوعي الجماعي لمجتمع المغرب الأوسط، الذي يغلب عليه النمط الزراعي (داودي الأعرج، 2017، ص 215، 216).

وما زاد من انتشار هذا الاعتقاد، وتبني المعارف المرتبطة به في مجال الزراعة، كما أنه لم يستقطب فقط عوام الفلاحين، الذين وقعوا في فخ عدم التمييز بين القرآن والسنة وبين استخدام آيات قرآنية ورموز وكلمات روحانية في إعداد الطلسم أو الحرز، بل أكثر من ذلك، حين استموى اهتمام علماء الفلاحة، الذين اعتقدوا بقوة فعل الطلسم، والذي كان له تأثير واضح في أوساط الفلاحين بالمغرب الأوسط (داودي الأعرج، 2017، ص 215 - 217). وفي السياق ذاته سعى الفلاح لإيجاد طرق بديلة عن ما قدمه علم الفلاحة من تقنيات وإجراءات فشلت في بعض الأحيان عن مواجهة الجوائح والأخطار المحدقة بالإنتاج الزراعي والحيواني، وقد سعى كلا من المزارعين والرعاة لحماية المزارع والبساتين وقطعان الماشية، والعمل على تحسين الإنتاج بما يدفع لتطور الفلاحة بشكل عام، لهذا أوجد بعض الفلاحين الحل في الطلاسم وبعض الاعتقادات المنحرفة لمشاكلهم، واتخذوها منفذا لبعث الأمل ولتجنب اليأس ورجاء لتجنب الخسائر وتفاؤلا في سنة زراعية مزدهرة، وقد أمعن

محمد حمداوي في وصفه لتلك الحالة، ووضع تصورا شاملا للانحرافات التي وقع فيها الفلاح، والتي تتم عن ممارسة الفلاحة في المغرب الأوسط (ابن خلدون، م6، 2003، ص 268؛ محمد حمداوي، ع143، 144، 2012، ص 244).

صفوة القول، إن اعتماد علم النجوم واستخدام الطلسم في الاحتراز من الأخطار ودفع الأضرار وجلب الخيرات، لم يكن حصرا على الساسة وحكام الدول المتعاقبة على حكم المغرب الأوسط، ومجموعة من خيرة العلماء، بل كان يمارس من قبل العوام والعلماء المرتبطين بخدمة الفلاحة في المغرب الأوسط، رغبة منهم في إنعاش الإنتاج الزراعي والحيواني، وتأمين مصالحهم ومضاعفة عائداتهم المالية بتجاوز كافة الأخطار والآفات المحدقة بالفلاحة؛ فمثلا لاستنباط الماء ومعرفة أماكن تواجده، وقربه وبعده من سطح الأرض والسعي لاستخراجه، كان يعمل طلسم باستخدام الحروف الأبجدية بما يقابلها من منازل القمر، وتكتب عشرين ألف مرة وتوضع في قرطاس أبيض، ثم يلجأ صاحب الطلسم لذكر ذلك الحرف الأبجدي بشرط أن يكون القمر بتلك المنزلة مع إشعال البخور، ويذكر بعد قراءة القسم أربعين مرة: "أيها الملك الروحاني أحب من طلبك في رفع الغطاء عن مياه العيون والأنهار الكائنة تحت الأرض والصخور الغائبة تحت الثرى...". (ابن الحاج التلمساني، ج1، د ت، ص 5)

يبدو أن اللجوء إلى هذه الطلاسم كان شائعا في المغرب الأوسط في ظل العجز عن إيجاد حلول لظاهرة الجوائح المائية، وتعاقب الجفاف والقحط وما نتج عنه من تردي أحوال الفلاحة، ولهذا كان البحث متواصلا من قبل الفلاحين لإنقاذ المزارع والبساتين من خطر المؤثرات الطبيعية، فلجأ هؤلاء إلى من اشتروا بكشفهم لأسرار الطلسم وتبصرهم في علم النجوم، وكان من هؤلاء ابن الحاج التلمساني، الذي قال: "... (حرف التاء) صورته هكذا (ت ن ت) من كتبه والقمر بمنزلته ألف مرة في قرطاس أحمر، ويتكلم عليه عدد ما كتب ويخور صاعدا، ثم اقرأ القسم عشرة آلاف مرة، وتقول في آخره أيها الملك الروحاني أمدني بسر غوران المياه المطلسة الجنية، والمياه المخلوقة الخلية، كماء العيون والأنهار، فإنه يجيبك...". (ابن الحاج التلمساني، ج1، ص 7).

الجدير بالذكر، أن علماء الطلسم ربطوا كوكب الزهرة بالزراعة وأوقات الخصوبة (ابن الحاج التلمساني، ج1، د ت، ص 70)، وكان الفلاح يستعين بالطلاسم لإصلاح الزرع والثمار وحمايته من الآفات، ومضاعفة الإنتاج حيث يستعمل طلسم يتضمن أسماء القمر مكتوبة مائة مرة مع سورة الفتح وأسماء الملوك السبعة، وتمحى هذه الكتابة بماء وعسل في إناء، ويضاف ماء الطلسم إلى الماء الذي يسقى به الزرع والشجر (ابن الحاج التلمساني، ج2، د ت، ص 111)؛ ويرجح أن هذه السلوكيات كانت سائدة لدى الفلاحين رغبة في زيادة الغلة، وما يفسر سيادة هذه الاعتقادات وانتشارها ما جاء عند ابن الحاج التلمساني: "فصل وللبركة في التين والتمر والزبيب، خذ عشرة حبوب من أي رهط كان واقرا عليهم قوله تعالى سترهم آياتنا في الأفاق إلى محيط الكافي الوهاب ذي الطول

القوي المتين مائة مرة، ترميمهم في وسط الفاكهة اليابسة في وقت القمر والطلع الجوزاء، والقمر قد بات في برج الجدي واطرهم ثلاثة أيام ولا ترفع منهم شيئا، وفي اليوم الرابع ارفع منه، وكى وتصدق، فإنهم لا ينفذون إلا العام القابل...". (ابن الحاج التلمساني، ج2، دت، ص 112).

الأمر المثير للاهتمام بروز جماعات ببلاد المغرب وبالأخص المغرب الأوسط، تعرف بـ " البعاجين"؛ وهؤلاء لهم علم متداول بينهم في السحر والطلسمات، ويقبلون على حفظ صحيفة تحوي أسرار الكلمات ورموز وروحانيات الكواكب؛ وهي لا تعدو طلسمًا يلحق الأذى بالمواشي والدواب، ويتسبب في بعجها وقتل أكثرها، ويثير الرعب والخوف في نفوس الفلاحين وأرباب الماشية، الذين يضطرون إلى دفع مبالغ طائلة إرضاء لهم؛ ولهذا عرفوا باسم "البعاجين" لدى سكان المغرب الأوسط. هذا بالإضافة إلى الخوف الذي عم أوساط الفلاحين من الضرر الذي أصاب منتجاتهم الزراعية قبل نضوجها، بسبب نعاقب الجوائح ومختلف الآفات والأمراض، دفعهم في بعض الأحيان للجوء إلى طرق وأساليب مختلفة تتراوح بين التحايل والغش وبين اللجوء إلى ممارسات يغلب عليها الجهل والخرافات باستخدام الطلسم، مما ينم عن الانحراف عن عقيدة الإسلام، فمثلا كان الفلاح يجني الثمار كالتين والعنب والتفاح وغيرها قبل نضجها والتزول بها إلى الأسواق، مما كان يستدعي تدخل المحتسب، وقد تضمنت كتب الفقه والحسبة مسائل كثيرة تتعلق بالغش والتحايل واعتماد بعض السلوكات التي ترتبط بالسحر أو الطلاسم في بيع الفواكه والثمار قبل نضجها (ابن خلدون، م1، 2003، ص 555: يحي بن عمر الأندلسي، 2011، ص 52، 53).

#### خاتمة :

وفي الأخير، نقول أن اللجوء لاستخدام الطلاسم أملتته الضرورة والحاجة الماسة لكبح الآفات والجوائح، والحفاظ على المصالح في غياب الحلول وعجز الطرق والأساليب المستندة للعلم والمعرفة الفلاحية، وتعبير عن مستوى ذهنية وسلوكيات فلاح العصر الوسيط، والذي استوى فيه العالم والجاهل واتفقا على اعتبار الطلاسم علم نافع في خدمة الفلاحة.

ويمكن القول، أن استخدام الطلسم كان شائعا في العصر الوسيط، ولم يقتصر على إقليم بعينه بل شمل كافة أقاليم الغرب الإسلامي، وكان المغرب الأوسط قد نال حظه من انتشار هذه الاعتقادات في أوساط الفلاحين الذين كثيرا ما استعانوا بالطلاسم لتحقيق مآربهم، وقد اشتهر في هذا الإقليم الكثير من الأعلام الذين رسموا معالم هذا العلم وفنونه، وتوسعوا في دراسته وكشف خفاياه وأساره بما يعود بالنفع على الفلاحة.

صفوة القول، أن الطلسم كعلم كان حقيقة تاريخية مؤ الحياة العقلية التي تعد أحد أهم مظاهر التحضر في المغرب الوسيط، والذي نعتبره معيارا لتحديد المستوى العقلي للفلاحين القائم على طبيعة ذهنية وسلوكيات المجتمعات الوسيطة، وما يهمننا في هذه الخلاصة أن الطلاسم كانت إحدى

الطرق التي اعتمدت كعلم لعلاج الأمراض والآفات، والتخلص من العقبات والعراقيل الطبيعية والبشرية التي شكلت خطراً على تطور الفلاحة في المغرب الأوسط.

### التعليقات والشروح:

\* اتفق جمهور أهل اللغة على أن الطلاسم تندرج في باب علم السحر، والذي يراد به تحقيق منافع أو إلحاق الضرر؛ وقد جاء التعريف اللغوي والاصطلاحي في المعجم الوسيط، كالآتي:

"طسم: أطرف وعبس، والماحر وغيره، كتب طلسمًا والشئ: عمل له طلسمًا ومن كلام الصوفية: سره، مطسم، وججاب، مطسم. وذات، مطسم: غامض. الطلمسم: (في علم السحر): خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية والطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى والشائع على الألسنة. طسم كجعفر، ويقال: فطسمه أو طلاسمه: وضعه وفسره (ج) - طلاسم".

قال ابن منظور: "طلى: الطلى: لغة في الرطب والطلح: الم - حو، وطن الكتاب طسا وطمه فطلى: كطسه. ويقال للصحيفة إذا صحت: طلس وطرس. والطلح: كتاب قد صي ولم ينعم محوه، فيصير طسا... وإذا محوت الكتاب لتفسد خطه قلت: طست، فإذا أنعمت محوه قلت: طست". وقد جاء عند الفيروزآبادي: "طلى الكتاب يطلسه: صاه كطسه. والطلح، بالكسرة للصحيفة أو الم - محوة".

وجاء في قول الجوهري: "الساحر: العالم. وسحره أيضا: بمعنى خضعه وكذلك إذا عله. والتسحير مثله، يقال الم - سحر: الذي خلق ذا سحر". ينظر: شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، ط 4، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2004، ص 562؛ ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، م 6، دار صادر، بيروت، ص 124؛ الفيروزآبادي مجد الدين محمد، القاموس المحيط، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص 554؛ الجوهري إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج 2، تحقيق أحمد عبد الغفور، ط 2، دار العالم للملايين، بيروت، 1979، ص 679.

### المراجع:

- 1 - البكري أبو عبيد عبد الله. (2003). المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبية، ط 1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- 2 - جابر بن حيان. (2002). إخراج ما في القوة إلى الفعل، ضمن كتاب مختار رسائل جابر بن حيان، اعتنى بتصحيحها ونشرها بول كراوس، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي.
- 3 - ابن الدلائي أحمد العذري. (د.ت). نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواي، مدريد، إسبانيا، منشورات معهد الدراسات الإسلامية.

- 4 - داودي الأعرج، (2017). تطور الفلاحة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين الثاني والسادس الهجريين (ق 8-12م)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم غير منشورة، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار.
- 5 - حسن نافعة وكليفورد بوزورث. (1987). تراث الإسلام، ترجمة حسن مؤنس وإحسان صدقي، الكويت، عالم المعرفة.
- 6 - حاجي خليفة، (2008). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتنى به محمد عبد القادر عطا، ط 1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- 7 - حمداوي محمد. (2012). المواسم الزراعية والأمثال الشعبية لدى الفلاحين التلمسانيين، مجلة الحداثة، السنة 19، العدد 143، 144، ص ص 242 – 259.
- 8 - ابن حماد الصنهاجي أبو عبد الله محمد. (د ت). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق عبد الحليم عويس والتهامي نقرة، القاهرة، مصر، دار الصحوة.
- 9 - ابن الحاج التلمساني. (د ت). شمس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى، بيروت، لبنان، دار الجيل.
- 10 - الطغري. (2006). زهرة البستان ونزهة الأذهان، تحقيق إكسيراثيون غارثيا، مدريد، إسبانيا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية.
- 11 - الطاهري أحمد. (1997). الطب والفلاحة في الأندلس بين الحكمة والتجريب مساهمة في التأصيل التاريخي للتراث العلمي بالغرب الإسلامي، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة.
- 12 - يحيى بن عمر الأندلسي. (2011). أحكام السوق، تحقيق إسماعيل خالدي، ط 1، بيروت، لبنان، دار ابن حزم.
- 13 - محمود زكي نجيب. (2001). جابر بن حيان، مصر، دار مصر للطباعة.
- 14 - مؤلف مجهول. (د ت). الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق محمد زغلول عبد الحميد، بغداد، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة.
- 15 - عبد الغني النابلسي. (د ت). علم الملاحاة في علم الفلاحة، تعليق يحيى مراد، دار كتب عربية للنشر والتوزيع الإلكتروني.
- 16 - ابن العوام الإشبيلي. (1802). كتاب الفلاحة، مدريد، إسبانيا، مكتبة ريال.
- 17 - صديق الغونجي حسن خان. (1978). أبجد العلوم المسمى الوشم المرقوم في بيان أحوال العلوم، إعداد عبد الجبار زكار، دمشق، سوريا، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- 18 - قسطوس بن اسكولستيه. (2010). كتاب الزرع، تحقيق بوراي طرابلسي، ط 1، تونس، مطبعة سوجيم، المجلس التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة.

- 19- القاضي النعمان. ( 1986). افتتاح الدعوة الزهراء، تحقيق فرحات الدشراوي، ط 2، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الشركة التونسية للتوزيع .
- 20 - القاضي النعمان. (1996). المجالس والمسائرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرين، ط 1، بيروت، لبنان، دار المنتظر .
- 21 - أبو القاسم المجريطي. غاية التحكيم. قسم المخطوطات، جامعة الملك سعود، رقم 5751.
- 22 - أبو القاسم بن أحمد بن صاعد الأندلسي. ( 1998). طبقات الأمم، تحقيق حسن مؤنس، القاهرة، مصر، دار المعارف .
- 23 - ابن خلدون عبد الرحمن. (2003). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط 2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية .
- 24 - ضيف شوقي وآخرون. (2004). المعجم الوسيط، ط 4، القاهرة، مصر، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية .